الأحد 21 من ديسمبر سنة 2008م - 23 من ذو الحجة سنة 1429هـ - العدد 806

# مطور مدرسة التاريخ العثماني

د. حسام محمد عبد المعطي :مدرس التاريخ الحديث والمعاصر كلية الآداب - بني سويف

قلة قليلة من الرجال والمؤرخين هم الذين يتنحون عن آرائهم ووجهات نظرهم التي طالما دافعوا عنها بعدما تتكشف حقائق جديدة أمامهم، فتلك سمة العلماء الذين يعرفون للحقيقة قدرها، وأحد أهم هؤلاء المؤرخين هو رءوف عباس حامد، ففي كتاباته الأولي هاجم رءوف عباس فترة الحكم العثماني معتبرا إياها مرحلة من التخلف والجمود والركود وأن مصر كانت جسدا بلا روح، وأن الحملة الفرنسية هي التي صدمت هذا الجسد فبعثت فيه الروح فأخذ يفيق علي أصوات مدافع بونابرت وصحفه، غير أن محمد علي هوالذي أخذ يبعث الدماء في شرايين هذا الجسد لينهض من جديد من كبوت سنوات عاني فيها من الجمود والتخلف.

وترجع وجهة النظر هذه إلي قلة الدراسات التي تمت حول هذه الفترة، والثاني: لأن رءوف عباس ركز في البداية كل مشروعه البحثي علي دراسة القرن التاسع عشر، وقدم العديد من الدراسات حوله كما دفع بالعديد من تلاميذه الأوائل إلي دراسته، غير أن هذه الدراسات أخذت تطرح في ذهنه مجموعة من التساؤلات، خاصة منذ بداية تسعينيات القرن المنصرم، وهي هل تمت التحولات التي نشأت علي يد محمد علي من فراغ؟ خاصة أنه لم يعتمد علي رأس المال الاجنبي في إقامة البنية الأساسية لاقتصاد السوق الخاضع لإدارة الدولة، وإنما اعتمد علي موارد مصر وحدها طوال حكمه، وحقق التراكم الأولي اللازم لإقامة تلك البنية من خلال إعادة تنظيم الاقتصاد المصري وتوجيه بعض قطاعاته وجهات جديدة، فمن أين استطاع الاقتصاد المصري في مطلع القرن التاسع عشر أن يوفر كل تلك الموارد إذا كان الاقتصاد تقليديا راكدا؟، وكيف استطاع المجتمع المصري أن يتجاوب مع إصلاحات محمد علي إذا كان مجتمعا يعاني الاضمحلال والتخلف؟ بل كيف استطاع العامل المصري أن يستوعب الأساليب الفنية الحديثة في مصانع محمد علي إذا كان عاطلا من الخبرة مفتقرا إلي الاستعداد وكيف استطاع الفتية المصريون الذين تعلموا في ظل نظام التعليم التقليدي في العصر العثماني أن يتجاوبوا مع التعليم الحديث، بل ويتابعوا الدراسة في المعاهد الفرنسية إذا كان النظام التعليمي الاساسي الذي أخرجهم متخلفا عاجزا، كل هذه تساؤلات أخذت تراود رءوف عباس وأخذ يطرحها علي جيل جديد من الباحثين لكشف غموض هذه الفترة التاريخية التي سبقت حكم محمد علي، وقد دفعته برغبته في كشف الستار عن هذه الفترة التاريخية إلي وضع خطة لتفعيل الدراسات العثمانية، وقد خطط لذلك عبر محاور أساسية أخذت تتطور مع الوقت وهي، أولا: تبني جيل جديد من الباحثين ليعملوا في تاريخ مصر العثمانية داخل قسم التاريخ بجامعة القاهرة، ثانيا: ترجمة أهم الدراسات الحديثة التي تمت حول هذه الفترة، ثالثا: تبن ثابت لإثارة حالة من الحوار والجدل حول هذه الفترة حتي يمكن الكشف عن تاريخ هذه الفترة، رابعا: عقد عدد من المؤتمرات والندوات حول تاريخ مصر في العصر العثماني وطبع هذه الندوات لكشف مزيد من الحقائق حول هذه الحقبة.

ففي إطار تبني جيل جديد من الباحثين داخل جامعة القاهرة، دفع رءوف عباس بتلميذه الاول محمد عفيفي إلي دراسة هذه الفترة وتخير واحدا من أهم الموضوعات التي لاتزال تحظي باهتمام كبير في الأوساط البحثية وهو »الأوقاف في مصرالعثمانية«، ثم حثه علي أن يمضي قدما لينجز موضوعه للدكتوراه حول »الاقباط في مصر في العصر العثماني«، ويتم اختيار الموضوعين عن عمق رؤية رءوف عباس، ولم يكن ذلك فقط هومافعله رءوف عباس فقد دفع بتلميذه الثاني ناصر أحمد إبراهيم إلي دراسة القرن السابع عشر أقل الفترة العثمانية حظا من الدراسة فأنجز رسالته للماجستير عن موضوع الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر، ولأنه كان يريد أن يكشف عن الأثر الحقيقي للحملة في فكرة الحداثة، والأثر الذي تركته في المجتمع والواقع المصري، لذلك فقد حث ناصرا علي دراسة النظام المالي للحملة الفرنسية في صعيد مصر، كما دفع اهتمام رءوف عباس بالعصر العثماني العديد من المحيطين

به بما آثاره من قضايا أن يغيروا توجهاتهم في البحث فقد غير سيد عشماوي وهوالذي تخصص دوما في دراسة القرن العشرين من توجهه ليقدم العديد من الدراسات عن العصر العثماني.

وفي ميدان الترجمة حرص رءوف عباس علي انتقاء العديد من الدراسات الجادة التي اعتمدت في تكوينها علي المصادر الأولية والارشيفية، وعلي المنهج العلمي الجاد والحديث، فراجع وأشرف في البداية علي ترجمة كتاب بيتر جيران »جذور الرأسمالية الاسلامية في مصر«، كانت البداية التي أعقبها بترجمة كتابي المؤرخة المرموقة نيللي حنا »تجارة القاهرة في العصر العثماني« وثقافة الطبقة الوسطي في مصر في العصر العثماني »ثم أعقب ذلك بإشرافه علي ترجمة العمل الاضخم للمؤرخ الشهيرأندريه ريمون »الحرفيون والتجار في القاهرة العصر العثماني«، وقد أتاحت هذه الترجمات إضافة للمقدمات العلمية الاصيلة التي أعدها والتي تعد دراسات منفصلة، أقول أتاحت تطورا مهما للمنهج العلمي في مدرسة التاريخ العثماني، وأحسب أن مراجعة الدراسات التي تمت في مصر أعقاب صدور هذه الترجمات خير دليل علي مالحق بالدراسات المصرية في العصر العثماني من تطور.

غير أن التطور الاكبر كان سمنار التاريخ العثماني يقول رءوف عباس إنه في العام 4991 جاءه نفر من أولئك الشباب من طلاب الدراسات العليا بمختلف الجامعات المصرية ليطلبوا منه أن يساعدهم علي تنظيم سمنار خاص بالعصر العثماني ، يطرحون فيه أفكارهم ويتبادلون الخبرات مع بعضهم، فوافق علي تبني هؤلاء الشباب بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، وبسبب جديته وإشرافه المحكم سرعان ماجذب السمنار عددا من كبار الاساتذة أمثال نيللي حنا وعاصم الدسوقي وعلي السيد وعبادة كحيلة، كما أصبح السمنار تدريجيا قبلة للباحثين الاجانب الوافدين الي مصر من أجل الابحاث أوالدراسات العليا، وخلال العامين الاولين من عمر السمنار (49- 59) كانت موضوعات السمنار مختلفة، ثم تطور الأمر وأصبح السمنار يختار موضوعا منفصلا لكل عام لدراسة أحد الجوانب في العصر العثماني، وحرصا علي أن يتخذ السمنار الطابع المؤسسي ضمانا لاستمرار نشاطه، اقترح أعضاء السمنار نقله الي مقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية باعتبارها بيت جميع المؤرخين منذ العام 0002، واستمر حتي الان ليصل عمره إلي ستة عشر عاما.

هكذا أصبح سمنار التاريخ العثماني تحت رعاية رءوف عباس نموذجا فريدا في المجال الأكاديمي العربي لما حققه جيل الباحثين الشباب الجدد من نجاح في تنظيم النشاط العلمي وإدارته، وهنا أخذ شكل السمنار في التغير فبعد أن ظل دوما لسنوات »حلقة نقاشية« فقط تحول لأول مرة منذ العام 2002 إلي تدوين وتسجيل إنتاجه في كل عام، فكان الإصدار الأول عن »العدالة بين الشريعة والواقع في مصر العثمانية«، ثم كان الإصدار الثاني عن »الطوائف المهنية والاجتماعية في مصر العثمانية«، بينما جاء الاصدار الثالث يحمل عنوان »الرفض والاحتجاج في المجتمع المصري في العصر العثماني« بيد أن الاصدار الرابع عالج موضوع »الفرد والمجتمع المصري في العصر العثماني«، وأخيرا وقبل أيام قليلة صدر الإصدار الخامس والأخير تحت عنوان «ثقافة النخبة وثقافة العامة في مصر العثمانية« حرر رءوف عباس مقدمات لكل هذه الاعمال وحرص علي مراجعتها وتنقيحها حتي يوجه هؤلاء الشباب الوجهة الصحيحة، فقد كان البوصلة التي اعتدنا علي السير علي وجهتها، كان يحرص علي إرشاد كل واحد منا علي حدي حتي لايحرجه أمام الآخرين، فكان بذلك يعرف قيمة الأستاذية، وجني رءوف عباس حب الجميع واحترامهم كما لعب رءوف عباس الدورالأول في إصدار حولية الوثائق المصرية المعروفة »بالروزنامة« بهدف نشر الابحاث التي تعتمد علي الارشيف بشكل رئيسي، وبالطبع فقد دفع تلاميذه من أبناء السمنار العثماني للإنتاج والنشر بالحولية الجديدة وأي مراجعة بسيطة لإصدارات الحولية سوف توضح تصدر أعضاء السمنار العثماني لمقالاتها.

لم تكن هذه الاصدارات هي الثمرة الوحيدة للسمنار العثماني فقد قدم السمنار ثلاثة أجيال من الباحثين الشباب لمعترك العمل العلمي في التاريخ، فقد رحب رءوف عباس في السمنار بكل الوافدين من مختلف الجامعات وفتح الباب أمام الجميع للمشاركة، حتي تلاميذ من كان يصفهم البعض بأعدائه، رحب بهم ولم يلتفت الي كلام الآخرين، وحرص علي أن يرشد الجيل الأول من أبناء السمنار لضرورة الأخذ بيد جيل جديد من الباحثين، ووجد فيه الجميع كما وجدته أبا أستاذا تجلس إليه لتحاوره ويرشدك بلا أدني رغبة في شيء سوي الصحيح، كما أدرك رءوف عباس أهمية عقد الندوات والمؤتمرات الدولية لخلق حالة من الحوار بين الباحثين المصريين والاجانب، كخطوة أولي في سبيل إقامة نوع من التنسيق بين الباحثين المصريين وزملائهم الاجانب، فنجح في عقد ندوة في الفترة من 1 -3 سبتمبر 1992 بقسم التاريخ بجامعة القاهرة حول »تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني« ثم واصل جهوده ليخرج أعمال وأوراق هذه الندوة في عدد خاص من مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة العدد 75، يقول رءوف عباس

في مقدمة هذه الندوة أن الهدف الرئيسي منها »سعيا وراءتكوين مدرسة مصرية للتاريخ العثماني«، وكان المؤتمر الثاني في 2 - 4 ابريل 5002 حيث جاء تكريما للعالم الكبير أندريه ريمون الذي أسهم بصورة كبيرة في كشف غموض العديد من الحقائق حول مصر العثمانية، وخلال هذا المؤتمر الذي حمل عنوان »المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني« وحث طلاب السمنار العثماني علي المشاركة في أوراق وأبحاث المؤتمر لهدفين، الأول: كشف الجيل الجديد من الباحثين الذين تخصصوا في الدراسات العثمانية وتقديمهم في المحافل العلمية الدولية الكبيرة وكشف قدرتهم علي تقديم الجديد، والثاني: تكريما لرجل كتب تاريخا لوطن اعتقد الجميع أنه ضربا من التخلف، بيد أن المؤتمر الثالث كان قبل وفاته بقليل ففي الفترة بين 62 - 03 نوفمبر 2007 دعا لمؤتمر بين مصر وتركيا، وقد حمل المؤتمر عنوان »مصر في العصر العثماني«، وترأس هوالجانب المصري بينما ترأس أكمل الدين إحسان أوغلو الجانب التركي، ومن يراجع أوراق المؤتمر من المشاركين عن الجانب المصري سوف يدرك علي الفور أثر رءوف عباس في رعاية جيل جديد من الشباب المصريين ليحملوا اسم مصر.
رحم الله رجلا طالما حث من حوله علي العمل من أجل هذا الوطن،فلم تكن كلمته الاخيرة في كل مقالاته إلا تجسيدا لفكرة آمن بها وهي »الله والوطن العزيز من وراء القصد« فقد شكوت إليه يوما إرهاقي وتعبي من كثرة الاعباء البحثية، فقال أكتب وأعمل فذلك هوالذي سوف يبقي لك ولمصر، رحم الله رءوف عباس أستاذا ومفكرا وعالما وأبا.

http://akhbarelyom.org.eg:81/adab/articleDetail.php?x=adab2008&y=806&z=1980&m=4